الغضب الإلهيّ

الخورية سميرة عوض ملكي

يَجِدُ معظم المسيحيّين صعوبةً في تقبّل الكلام على غضب الله وفهمه والإيمان به. لطالما كانت فكرة وجود إلهٍ غاضبٍ بالنسبة إلى بعض المسيحيّين حاجزًا على طريق إلى الإيمان. فبعض المسيحيّين، إذ يختبرون نعمة الربّ المُحِبّة في حياتهم، يعتقدون أنّ فكرة غضب الله تبدو متناقضةً مع تجربتهم التي يعبّر عنها الرسول بولس في الرسالة إلى أهل رومية بأنّ الله "بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا، لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا" (٥:٨)، فكيف يكون في نفس الوقت إلهَ غضبٍ؟

يتحدّث الكتاب المقدّس عن طبيعة الله وعمله وغاياته بمصطلحاتٍ نفهمها ويمكن أن نختبرها. لكن علينا أن نتذكّر أنّ العقل البشريّ لا يمكنه البتّة فهم طبيعة الله المطلَقة. فنحن نرى الله كَمَن يمتلك الحقيقة والنعمة والجمال والمحبّة والصلاح والإخلاص، بأشكالها المطلقة. في المقابل، ما نراه في البشر هو بعض هذه الأشكال، لكن إلى جانب الكراهية والغضب وروح الانتقام والقبح والغضب.

إنّ سبب صعوبة أن نطبّق على الله بعض الصفات التي نعتبرها سلبيّةً يعود إلى تفكيرنا المثاليّ الذي أصوله في الفلسفة. مشكلة غالبيّة المسيحيّين، ومنهم أرثوذكسيّون، أنّهم يقرؤون ما يحكي عن غضب الله بعيون لاهوت العصور الوسطى الغربيّ أو لاهوت الإصلاح. لكنّ الكتاب المقدّس ينظر إلى الله والعالم بشكلٍ أكثر جديّة وواقعيّة من التأمّل الفلسفيّ. لهذا السبب، قول البعض إنّ الله لا يستطيع أن يسمح بالشرّ وإلّا يكون هو مصدر الشرّ، هو تفكير وكلام فلسفيّ.

لا يرفض الرسول بولس الكلام على غضب الله، والذهبيّ الفم في تفسيره للرسول بولس يعلّل بأنّ مَن يرفض قبول غضب الله وقصاصه هو في الحقيقة يرفض أن يكون خليقة الخالق. يتحدّث الرسول بولس عن غضب الله بطريقتين: الأولى أنّه حدثٌ آتٍ كحسابٍ للعالم عن خطيئته "وَلكِنَّكَ مِنْ أَجْلِ قَسَاوَتِكَ وَقَلْبِكَ غَيْرِ التَّائِبِ، تَذْخَرُ لِنَفْسِكَ غَضَبًا فِي يَوْمِ الْغَضَبِ وَاسْتِعْلاَنِ دَيْنُونَةِ اللهِ الْعَادِلَةِ" (رومية ٢:٥). الطريقة الثانية التي يرى الرسول فيها غضب الله، حاضرة وليست فقط في يوم الدينونة، فيقول في الرسالة إلى رومية (١:١٨): "أَنَّ غَضَبَ اللهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمِ". ويتابع واصفًا فجور الناس

وآثامهم التي تستجرّ غضب الله لتأديبهم. فيكون، بنظر الرسول، سببُ الشرور التي تحلّ بالناس خطيئتَهم وإنكارهم لحقيقة الله وتبنّيهم للتفكير العقيم والوثنيّة والانحراف الجنسيّ وكسر العلاقات الأخلاقيّة. وفي هذا يرى الرسول أنّ غضب الله هو موجّهٌ ضدّ الخطيئة وليس ضدّ الخاطئ، وهو لا يشبه موقف آلهة الرومانيّين بشيءٍ ولا هو صادرٌ عن انتقام أو رغبةٍ بالشرّ.

قد يكون القدّيس يوحنّا الذهبي الفم أكثر مَن تكلّم على "غضب الله" و"القصاص الإلهيّ" بين آباء الكنيسة. يشرح القدّيس سمعان اللاهوتيّ صعوبة فهم الحديث عن المحاكمة الإلهية بقوله "التفسير صعبٌ لأنّه ليس عن أشياء حاضرة ومرئيّة، بل عن أمورٍ مستقبلةٍ وغير مرئيّة. لهذا هناك حاجةٌ عظيمةٌ إلى الصلاة، وإلى جهدٍ نسكيّ أكبر وطهارةٍ في النوس، عند كلّ الذين يتكلّمون والذين يسمعون، لكي يكون الأوّل قادرًا على المعرفة والكلام جيّدًا، ويكون الآخر قادرًا أن يسمع ما يُقال بفهم".

في العظات الناريّة والأعمال التفسيريّة للذهبيّ الفم، لحظاتٌ رعائيّةٌ يقود خلالها أبناءه الروحيّين ومستمعيه إلى فهم الأمور الروحيّة بشكلٍ أعمق. إحدى هذه الحالات هي رسالته الأولى إلى صديقه ثيوذوروس. هذا شُغِفَ بامرأةٍ وسعى للزواج منها بالرغم من نذر العفّة الرهبانيّ. إنّها رسالةٌ جميلةٌ ساعدت ثيوذوروس على تخطّي اليأس الناتج من التعارض بين شغفه ونذره. فالذهبيّ الفم، لكي يقود ثيوذوروس خارج اليأس، يشرح بأنّه إن كان صحيحًا أنّ الله بطبيعته غضوبٌ ومعاقِب، فمن الطبيعيّ أن يغلبنا القنوط: "لأنّه إذا كان غضب الله هوى، فقد يشعر المرء باليأس، لأنّه غير قادرٍ على إخماد الشعلة التي هو [كرجلٍ شرّير] أشعلها بأفعاله الشرّيرة المتعدّدة؛ ولكن بما أنّ الطبيعة الإلهيّة بلا هوى، فحتّى ولو عاقب، حتى لو انتقم، لا يفعل ذلك بغضب، ولكن بحرصٍ شديدٍ ولطفٍ كبيرٍ مُحبّ؛ حيث يقتضي ذلك أن نكون أصحاب شجاعةٍ كبيرة، وأن نثق بقوّة التوبة. لأنّه حتّى الذين أخطأوا إليه، فإنّه ليس معتادًا على أن يطالهم بالعقاب من أجله؛ لأنّه لا يمكن لأيّ ضررٍ أن يعبر الطبيعة الإلهيّة؛ لكنّه يتصرّف من أجل مصلحتنا، ومنع انحرافنا من أن يزداد سوءًا بتحويل ممارسة احتقاره وإهماله إلى عادة. لأنّه حتّى مَن وضع نفسه خارج النور، لا يفقد النور، بل الأعظم بنظر نفسه يصمت في الظلام؛ وعلى المنوال نفسه، من اعتاد أن يحتقر تلك القوّة القديرة، لا يضرّ القوة، لكنّه يلحق أكبر إصابة بنفسه. ولهذا السبب، يهددنا الله بالعقوبات، وغالبًا يطبّقها، لا ليثأر لنفسه، ولكن ليجذبنا إليه. فالطبيب أيضًا لا يشعر بالضيق أو الانزعاج من إهانات الذين فقدوا عقولهم، ولكنّه يعمل

كلّ شيءٍ ويدبّره لإيقاف أولئك الذين يقومون بمثل هذه الأفعال غير الملائمة، ولا ينظرون إلى إرادته بل إلى مكاسبهم؛ وإذا أظهروا قدرًا ضئيلًا من ضبط النفس والرصانة، فإنّه يفرح ويسعد، ويطبّق علاجاته بجديّة أكبر، ليس على سبيل الانتقام منهم بسبب سلوكهم السابق، ولكن رغبةً في زيادة منفعتهم، واستعادتهم إلى العافية. ومع ذلك، عندما نقع في تطرّف الجنون، فالله يقول ويفعل كلّ شيء، ليس لينتقم لنفسه بسبب أفعالنا السابقة؛ ولكن لأنّه يرغب في تحريرنا من اضطرابنا؛ ومن خلال المنطق الصحيح، من الممكن أن نقتنع بهذا".

لذا، عندما يتحدّث الكتاب المقدّس عن الغضب والقصاص والانتقام الإلهيّين، لا تكون هذه اللغة وصفًا لطبيعة الله التي لا سبيل إلى معرفتها أو فهمها أو وصفها، بل بالأحرى غايتها ردّ الإنسان عن أن يلازم شرّه وأن يتوب. يصف الذهبي الفم غضب الله بأنّه لطفٌ مُحِبٌّ للإنسان، لكنّ الشرير يختبر هذه المحبّة كغضبٍ وعقاب. يأخذ الذهبيّ الفم مثال الطبيب وكيف أنّ علاج بعض الأمراض ليس لعقاب مَن يسبب المرض أو يعانيه، بل هو ضرورةٌ لاستجلاب الصحّة والمنفعة لمَن هو بحاجةٍ إلى العلاج، بغضّ النظر عن كمّ الألم الذي يُلحِقه العلاج. وهكذا، استعمال هذه اللغة في الكتاب المقدّس وعند الآباء هو لكي نفهم مدى أهميّة أن نتوب الآن، لأنّه لا توبة بعد الموت.

Source: https://www.orthodoxlegacy.org/?p=3259